

الباب الثامن عشر

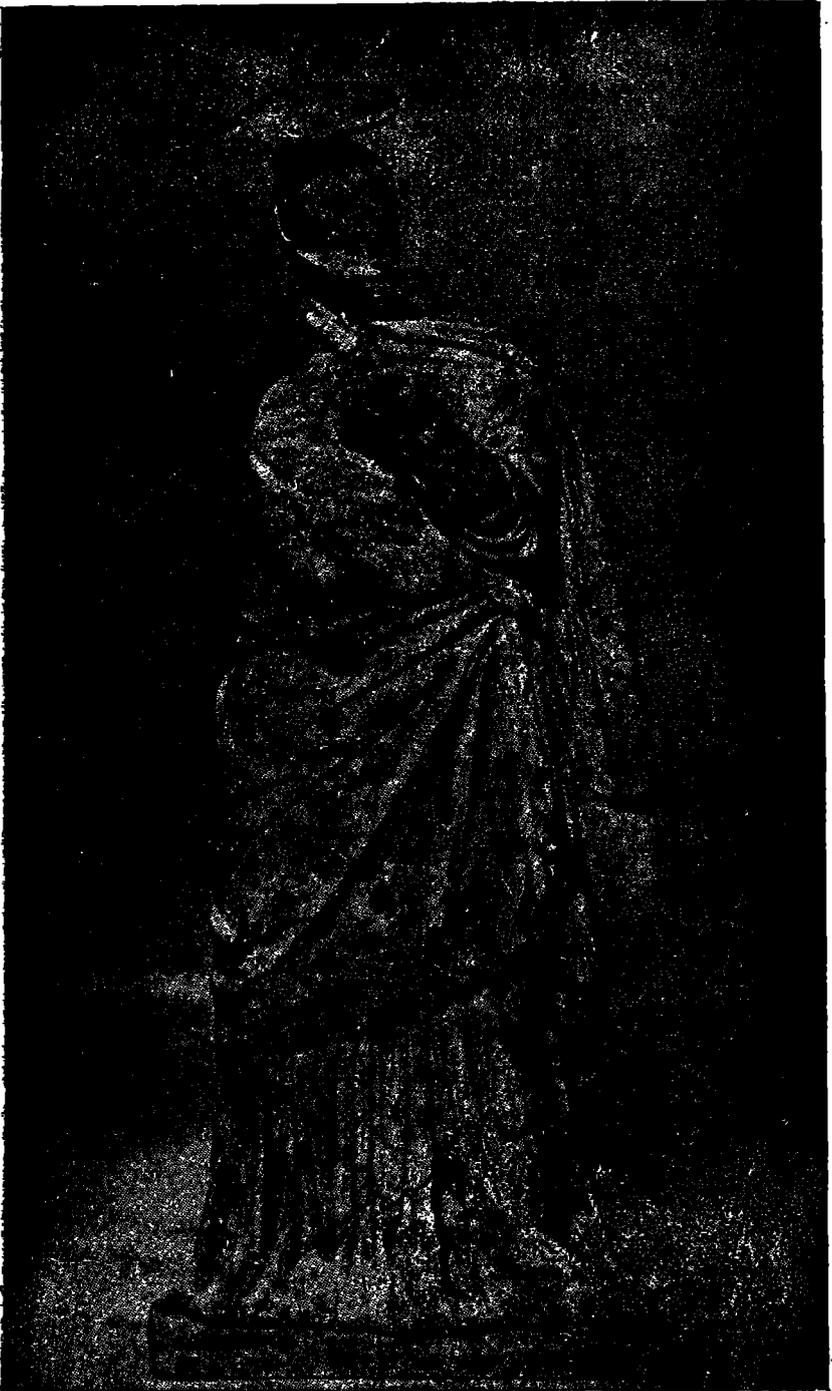
اتحاد بلاد اليونان

الفضل الأول

العالم اليونانى فى عهد بركليز

خليق بنا قبل أن نواجه منظر حرب الهلوبيوز المخزنة أن نلقى نظرة على العالم اليونانى خارج أتكنا . ولكن معلوماتنا عن الدولة الواقعة فى هذا العالم ضئيلة إلى حد لا يسعنا معه إلا أن نفترض ما لا نستطيع أن نقيم عليه الدليل ؛ وهو أنها كانت تشترك مع أثينة فى الازدهار الثقافى الذى امتاز به العصر الذهبى وإن لم تبلغ مبلغ أثينة نفسها فى هذا الازدهار .

فى عام ٤٥٩ سبر بركليز أسطولا ضخماً ليطرد الفرس من مصر حرصاً منه على أن يضمز، لبلادهم قمحها . وأخفقت الحملة فى غرضها ، وسار بركليز من ذلك الحين على السياسة التى كان يسير عليها ثمستكايز ، وهى أن يكسب العالم بالتجارة لا بالحرب . من أجل ذلك ظلت مصر وقبرص طوال القرن الخامس خاضعتين لحكم الفرس ، واحتفظت رودس بحريتها ، ثم انضمت مدنها الثلاث وأصبحت مدينة واحدة عام ٤٠٨ قهيات بذلك إلى أن تكون فى العهد الذى اصطبغ فيه العالم المعروف بالصبغة اليونانية مركزاً من أغنى المراكز التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . واحتفظت المدن اليونانية فى آسية باستقلالها الذى ظفرت به فى ميكالى عام ٤٧٩ حتى أضحت بعد تدمير الإمبراطورية الأثينية



(شكل ٣٨) تمثال من تيجارا في متحف نيويورك

ضعيفة عاجزة عن مقاومة جباة الملك العظيم (*) . وازدهرت المستعمرات اليونانية في تراقية وعلى شواطئ الهلسنت والپروپنتس واليوكسين (**). تحت السيطرة الأثينية ، ولكن الحرب الپلونيزية أكلت فيها الأخضر واليابس ، وخرجت مقدونية تحت حكم أرخلوس Archelaus من نغارهمجية وأضحى إحدى الدول الكبرى في العالم اليوناني . فأنشئت فيها الطرق الصالحة ، وصار لها جيش حسن النظام والتدريب من رجال الجبال الأشداء ، وبنت لها عاصمة جديدة جميلة في پلا ، ورحب بلاطها بكثيرين من عباقرة اليونان أمثال تموثيوس Timotheus ، وزيوكسيس Zeuxis ، ويورپديز ، وضربت بلاد اليونان في الحلف البووني مثلاً طيباً لم تنفع به حياة الدول حرة مستقلة في ظلال السلم والتعاون الدولي .

وفي إيطاليا عانت المدن اليونانية أشد البلاء من جراء الحروب المتكررة ومن تفوق أثينة في مجال التجارة البحرية . وأرسل پركليز في عام ٤٤٣ جماعة من الهلينيين جمعهم من عدة دول لينشئوا بالقرب من سيبارس مستعمرة ثوريای Thurii الجديدة لتكون تجربة في سبيل الوحدة الهلينية الجامعة ، ووضع پروتاغوراس قانوناً عاماً للمدينة ، وخطط هيو دامبس المهندس المعماري شوارعها على نظام مربع حذت كثير من المدن الأخرى حلوه في القرون التالية . ولكن لم تمض على تلك التجربة إلا بضع سنين حتى انقسمت المستعمرات أحزاباً وشعباً حسب أصولها ، وحتى عاد معظم الأثينيين ، وأكبر الظن أن هيرودوت كان منهم ، إلى أثينة ،

وظلت صقلية - وهي التي كانت دائماً مضطربة ولكنها كانت دائماً غنية - تنمو ثروتها وتزداد ثقافتها . وشادت سلينس وأقراغاس معابد ضخمة

(*) يريد ملك لفرس . المترجم

(**) أي الدردنيل وبحرمرمرة والبحر الأسود . المترجم .

وبلغت أقراغاس في عهد ثيرون درجة من الغنى قال فيها أنبادوقليس :
« ينغمس رجال أقراغاس في الترف كأنهم يموتون غداً ، ولكنهم يموتون
ببوتهم كأنهم يعيشون أبداً^(١) . وترك چيلون الأول بعد موته في عام ٤٧٨
لسرقوصة نظاماً إدارياً لا يكاد يقل إحكاماً عن النظام الذى خلفه ناپليون
لأوروبا الحديثة . وأضحت المدينة في عهد أخيه هيرون الأول الذى جلس
على العرش من بعده مركزاً للأدب والعلم والفن فضلاً عن التجارة والثروة .
وفى فيها أيضاً بلغ الترف غايته . فكانت المآدب السرقوصية مضرب المثل فى
البدخ ، وكثرت « البنات الكورنثيات » فى المدينة حتى كان الرجل الذى
ينام فى منزله يعد من القديسين ؛ وكان الأهلون سريعى البديهة حداد
الأسنة ، يستمتعون بالخطب البليغة إلى حد أفسد عليهم أمورهم ، ويتزاحون
فى الملهى الفخم ذى الهواء الطلق ليستمعوا إلى مسالى إيكارمس ومآسى
إسكلس^(٢) .

وكان هيرون هذا ملكاً مستبدأ غليظ القلب حسن القصد ، قاسياً
على أعدائه ، مكرماً لأصدقائه . فتح بابه وخزائنه لسمونيديز ، وبكليديز ،
وڤندار ، وإسكلس ، واستعان بهم على جعل سرقوصة إلى وقت ما عاصمة
اليونان العقلية ؛

لكن الناس لا يعيشون على الفن وحده ؛ وكان السرقوصيون يتوقون إلى
نعمة الحرية ، فلما توفى هيرون خلعوا أخاه وأقاموا حكومة ديمقراطية مقيدة ،
وشجع هذا مدن الجزيرة الأخرى ، فحذت حلو سرقوصة وطردت الطغاة
الحاكمين ، وقضت على الأشراف ملاك الأرضى وأنشأت ديمقراطيات تجارية
تقوم على نظام من الاسترقاق القاسى الشديد . وقضت الحرب بعد بيتين

(١) وأكبر الظن أن هذا الملهى قد بنى فى عهد هيرون الأول (٤٧٥ - ٤٦٨) ثم أعيد
بناؤه فى عهد هيرون الثانى (٢٧٠ - ٢١٦) . وقد بقى منه جزء كبير . ومثلت فيه فى هذا
القرن كثير من المسرحيات اليونانية القديمة .

سنة من ذلك الوقت على هذه الفترة من فترات الحرية كما قضت من قبل على فترة أخرى مماثلة لها عن يد چيلون الأول . وفي عام ٤٠٩ غزا القرطاجيون صقلية بأسطول ضخم مؤلف من ألف وخمسمائة سفينة وعشرين ألف رجل بقيادة هنيبال حفيد هملكار ؛ وذلك بعد أن ظلوا ثلاثة أجيال محتفظين بذكرى هزيمة هملكار في هيميرا Himera . وحاصر هنيبال سلينس وكانت قد جنحت إلى السلم بعد أن عمها الرخاء ، وأهملت معاقبتها فلم تصلح شأنها . فلما أن باغت العدو المدينة استغاثت بأقراغاس وسرقوصة ، وتباطأ أهلها المنعمون في إغايتها تباطؤ الاسبارطيين ، حتى استولى العدو على سلينس ، وذبح كل من بقى حيا من أهلها وقطع أوصالهم ، وأصبحت المدينة جزءاً من الإمبراطورية القرطاجية . وواصل هنيبال زحفه على هيميرا ، واستولى عليها دون عناء ؛ وعذب وقتل ثلاثة آلاف من أهلها ، ليرضى بذلك شبح جده المهزوم . ثم فشا الطاعون بين جنوده فأهلك أكثرهم ، ومات به هنيبال نفسه في أثناء حصار أقراغاس ، غير أن القائد الذي خلفه سكن غضب آلهة قرطاجة بأن حرق ابنه زلفى لهذه الآلهة . واستولى القرطاجيون على المدينة ، وعلى چيلا Gela وكرينا Camarina وزحفوا على سرقوصة . وبوغت السرقوصيون وهم منهمكون في ولائهم ، فأسلموا زمام السلطة المطلقة لديونيئشس أعظم قائد في بلدهم ، ولكن ديونيئشس عقد الصلح مع القرطاجيين وترك لهم القسم الجنوبي من صقلية بأجمعه واستخدم جنوده في إقامة الدكتاتورية ثانية (٤٠٥) . ولم يكن ذلك كله غدرًا منه وخيانة لبلاده ، فقد كان يعرف أن المقاومة غير مجدية ، فنزل للعدو عن كل شيء عدا مدينته وجيشه ، واعتزم أن ينهض بالمدينة والجيش حتى يستطيع أن يفعل ما فعله چيلون من قبله فيطرد الغزاة من صقلية .

الفصل الثاني

كيف شبت نار الحرب الكبرى

لا يستطيع المواطن الساذج إلا أن يعتقد أن سبب كل الحروب هو على الدوام سبب شخصي - بل شخص واحد في العادة ، كما لا تستطيع النفس الساذجة إلا أن تصور إلها في صورة إنسان . وحتى أرسطوفان نفسه قد فعل ما فعله الثرثارون الغمامون من رجال عصره فادعى أن بركليز هو الذي أوقد نار الحرب الهلنويونزية بهجومه على ميغارا لأن ميغارا أساءت إلى إسبانيا (٣) هـ

والراجع أن بركليز الذي لم يتردد في الاستيلاء على أيجينا ، كان يأمل أن تستحوذ أثينة على التجارة اليونانية بأجمعها ، وذلك بسيطرتها على ميغارا وعلى كورنثة أيضاً ؛ ولقد كان مركز كورنثة بالنسبة لبلاد اليونان كمركز اسطنبول في شرق البحر الأبيض المتوسط في وقتنا الحاضر - كانت باباً ومفتاحاً لتجارة نصف قارة . لكن سبب الحرب الجوهرى هو نمو الإمبراطورية الأثينية ، وازدياد سيطرة أثينة على الحياة التجارية والسياسية في بحر إيجه . لقد كانت أثينة تترك التجارة حرة في هذا البحر وقت السلم ، لكنها لم تكن تفعل ذلك إلا إذا أجازته هي وسمحت به مصالحها الإمبراطورية ؛ ولم يكن في مقلود أية سفينة أن تمخر عباب هذا البحر إلا برضاها هـ

وكان رجال أثينيون موكلون منها يحددون مستقر كل سفينة تغادر ثغور الجيوب في البلاد الشمالية ؛ ولما أن كاد الجذب يهلك ميثوني Methone لم نستطع أن نستورد القليل من الجيوب إلا بعد استئذان أثينة (٤) . وكانت تلك المدينة تدافع عن هذه السيطرة لأنها تراها أمراً حيوياً لا بد منه لبقائها ، فقد كانت تعتمد في طعامها على ما تستورده من خارج بلادها ، وقد أجمعت أمرها على أن تحرس الطرق التي يصل منها هذا

الطعام إليها ؛ على أنها بمراسمتها طرق التجارة الدولية كانت تؤدي خدمة حقة للسلم والرخاء في بحر إيجه ، ولكن الطريقة التي سارت عليها في أداء هذه الخدمة ازدادت إيلاماً للمدن الخاضعة لها وجرحاً لكبرياتها كلما زاد ثراء هذه المدن وقوى إحساسها بعزتها القومية . وكانت أثينة قد أخذت تنفق الأموال التي تبرعت بها هذه المدن لتتصد بها غارات الفرس عنها في نجميلها ، بل لقد بلغ منها أن أخذت تنفقها في شن الحرب على غيرها من مدن اليونان^(٥) . وكانت الأحوال المفروضة على تلك المدن تزداد عاماً بعد عام حتى بلغت في عام ٤٣٢ ق . م ٤٦٠ وزنة (٢٣٠٠ ر٠٠٠ ريبال أمريكي) في العام . وكانت أثينة قد قصرت على المحاكم الأثينية حق النظر في جميع القضايا التي تنشأ في داخل الحلف إذا كان أحد طرفي النزاع مواطناً أثينياً أو كانت القضايا تشمل جرائم كبرى . فإذا ما وقفت مدينة في وجه أثينة أخضعتها بالقوة ، وعلى هذا النحو أخذ يركاز بسرعة ومهارة الفن التي تار نفعها في إيچينا (٤٥٧) ، وعبوية (٤٤٦) ، وساموس ٤٤٠ .

وإذا جاز لنا أن نصدق قول توكيديدز فإن زعماء الديمقراطية الأثينية كانوا يعترفون أن حلف المدن الحرة قد أصبح إمبراطورية تقوم على القوة ، وإن كانوا قد اتخذوا الحرية الفرض الأسمى لسياستهم في داخل أثينة نفسها . وفي ذلك يقول توكيديدز على لسان كليون مخاطباً الجمعية في عام ٤٢٧ : « عليكم أن تذكروا أن إمبراطوريتكم ليست إلا طغياناً تفرضونه على أقوام خاضعين لسلطانكم رغم أنوفهم ، وأنهم لا ينفكون يأترون بكم ، وهم لا يطيعونكم نظير خبير تقدمونه لهم ونضرون به أنفسكم لتتفخروهم فتؤثروهم بذلك على أنفسكم ، بل يطيعونكم لأنكم سادتهم ، وهم يحبونكم مرغمين ، ولكنهم لا يخضعون لكم إلا بالقوة^(٦) ، وقد أدى هذا التناقض الأساسي بين عبادة الحرية ، وطغيان الإمبراطورية منضها إلى النزعة الفردية المتأصلة

في الدول اليونانية أدى هذا وذاك إلى القضاء على العصر الذهبي في بلاد اليونان .

وشرعت مدن اليونان جميعها تقريباً تقاوم سياسة أثينة^(٧) ، فقاومت بوثوتية في كورونيا (٤٤٧) ما بذلته أثينة من جهود لضمها إلى الإمبراطورية . واستغاثت بعض المدن الخاضعة لأثينة وبعضها الآخر الذي يخشى الخضوع لها بأسبارطة ، وطلبت إليها أن تقف في وجه أثينة . ولم يكن الإسبارطيون متحمسين للحرب راغبين فيها ، لعلمهم بقوة الأسطول الأثيني وشجاعة رجاله ، ولكن الكراهة العنصرية القديمة بين اللنوريين والأيونيين أشعلت نار البغضاء في قلوبهم ، وبدأ للأجركية الإسبارطية مالكة الأراضي أن الخطة التي جرت عليها أثينة وهي إقامة حكومة ديمقراطية تستمد سلطتها من الإمبراطورية في كل مدينة من المدن الخاضعة لها ، نقول بدالهده الأجركية . أن تلك الخطة تهدد كيان الحكومات الأرستقراطية أينما كانت ، واكتفى الإسبارطيون حيناً من الدهر بتقديم المعونة للطبقات العليا في كل مدينة من هذه المدن ، وأخذوا يعملون على مهل في تكوين جبهة متحدة ضد أثينة .

ورأى بركليز نفسه يحيط به الأعداء من داخل أثينا وخارجها ، فأخذ يعمل للسلم ويستعد للحرب . وهده تفكيره إلى أن في مقدور الجيش أن يدافع عن أتكا ، أو عن جميع سكان أتكا إذا اجتمعوا داخل أسوار أثينة ، وأن في مقدور الأسطول أن يحمي الطرق التي تسلكها السفن المحملة بالحبوب من بلاد اليوكسين أو مصر إلى نغر أثينة المسور وبيقتها مفتوحة . وكان يعتقد أنه لا يستطيع النزول عن شيء لأعدائه دون أن يعرض للخطر موارد الطعام الذي تعتمد عليه أثينة ؛ وبدا له كما يبدو لإنجلترا في هذه الأيام ، أنه أمام واحدة من اثنتين إما الإمبراطورية أو الموت جوعاً ولا وسط بينهما . ولكنه مع هذا أرسل الرسل إلى جميع الدول اليونانية يدعوها إلى عقد مؤتمر هليني للبحث عن حل للمشاكل التي تدفع

اليونان للحرب . فرفضت اسبارطة الدعوة ، إذ أحست أن قبولها إيهاها سيفسر بأنه اعتراف منها بزعامه أثينة ، وحدث كثير من الدول الأخرى حذوها بوحى منها^(٨) ، وبذلك فشل مشروع بركليز . وفي هذا يقول توكيديلز قاله تفسر كثيراً من الحقائق التاريخية : « لقد كانت الهلويونيز وأثينة ماموتين بالشباب تدفعهم نقص تجربتهم إلى الرغبة في امثشاق الحسام^(٩) » .

كانت هذه العوامل الأساسية تعمل عملها ، ولم يكن قيام الحرب يتطلب أكثر من حادث يستفز النفوس . وقد وقع هذا الحادث في عام ٤٣٥ . وذلك أن كرسيرا Corcyra إحدى المستعمرات الكورنثية أعلنت استقلالها عن كورنثة وانضمت إلى الحلف الأثيني ليحميها من تلك المدينة . وأرسلت كورنثة عمارة بحرية لإخضاع الجزيرة . واستغاث الديمقراطيون المنتصرون في كرسيرا بأثينة فسيرت أسطولا لإغااثهم . وحدثت معركة غير حاسمة بين أهل كرسيرا وأثينة من جهة ، وأهل مينارا وكورنثة من جهة أخرى . وفي عام ٤٣٢ حاولت بوتيديا Potidaea وهي مدينة في جزائر خلقيديية تؤدى الجزيرة لأثينة ولكن أهلها من عنصر كورنثي ، جاوالت هذه المدينة أن تخلع النير الأثيني عن كاملها ، فسير عليها بركليز جيشاً يحاصر ها ، ولكنها ظلت تقاومه سنتين كاملتين استنفدت في خلالها موارد أثينة العسكرية وأضعفت هيبتها . ولما أن مدت ميثارا يدها مرة أخرى بالمعونة إلى كورنثة أمر بركليز بمنع كل مصولاتها من دخول أسواق أتكا والإمبراطورية . واستغاثت مينارا وكورنثة باسبارطة ، فعرضت على أثينة أن تلنى قرار التحريم ، ووافق بركليز على شريطة أن تسمح اسبارطة للدول الأجنبية . بأن تتجر مع لكونيا ، فرفضت اسبارطة هسنا الشرط ، واشترطت من جانبها للصلح أن تعترف أثينة باستقلال جميع المدن اليونانية استقلالاً تاماً ، أى أن تنزل أثينة عن إمبراطوريتها . وأقنع بركليز الأثينيين أن يرفضوا هذا الطلب ، فما كان من اسبارطة إلا أن أعلنت الحرب^(١٠) .

الفصل الثالث

من الوباء إلى السلم

وانضمت بلاد اليونان كلها إلى هذا الطرف أو ذاك من الطرفين المتنازعين فانضمت دول البلوونيز ما عدا أرغوس إلى اسبارطة ، وحدث حلوها كورنثة ، وميغارا ويوثونية ، ولكريس ، وفوسيس . أما أثينة فقد قدمت لها المدائن الأيونية واليكسينية ، والجزائر الإيجية في بادئ الأمر بعض معوتها . وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الحرب كالمرحلة الأولى من الحرب العالمية الكبرى في هذه الأيام(*) صراعاً بين القوتين البحرية والبرية ، فقد ضرب الأسطول الأثيني مدن البلوونيز الساحلية ، وأما الجيش الاسبارطي فغزا أتكا واستولى على غلاتها وأتلف تربتها . ودعا بركليز سكان أتكا إلى الاعتصام داخل أسوار أثينة ، وأبى أن يخرج جيوشه للقتال ، ونصح الأثينيين الذين هاج هاجهم بأن يصبروا ويصابروا حتى ينتصر أسطولهم .

وقد كان هذا تدييراً سديداً من الناحية العسكرية الفنية ، ولكنه غفل من عامل كاد أن يحسم النزاع . فقد كان ازدحام أثينة بأهل أتكا سبباً في تفشي وباء فيها - لعله الملاريا(١١) - في عام ٤٣٠ دام قرابة ثلاث سنين ، وأهلك ربع جنودها ، وعددًا كبيراً من أهلها المدنيين(**) . واستولى اليأس على قلوب الأهلين لما لحقهم من العذاب بسبب الوباء والحرب فاتهموه بأنه أصل كليهما . وتقدم كليون وغيره للقضاة متهمين بركليز بأنه أساء التصرف

(١١) يريد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . (المترجم)

(**) انظر رصف لكريشس القوي لهذا الوباء في ص ١١٣٥ - ١٢٨٦ من الجزء الرابع

فى الأموال العامة ؛ وإذا كان قد استخدم أموال الدولة كما يبدو فى إرشاء ملوك إسبارطة لعقد الصلح فقد عجز عن أن يقدم حساباً مقنعاً عما تصرف فيه من الأموال ، وثبتت عليه التهمة ، وأخرج من منصبه ، وفرضت عليه غرامة باهظة مقدارها خمسون وزنة (٣٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) . وفى ذلك الوقت عينه أو حواليه ماتت أخته ومات اثنان من أبنائه الشرعيين بالوباء ، لكن الأثينيين لم يجعلوا لهم زعيماً يخلفه فأعادوه إلى منصبه (٤٢٩) ، وأرادوا أن يظهروا تقديرهم له وعطفهم عليه فى محنته ، فحرقوا قانوناً كان هو واضعه ، ومنحوا ابناً له من إسباريا حقوق المواطنة الأثينية . ولكن الأثينيين الطاعن فى السن كان هو نفسه قد أصيب بالوباء ، ووهنت قواه يوماً بعد يوم ومات بعد بضعة أشهر من عودته إلى منصبه . ولقد وصلت أثينة فى عهده إلى ذروة مجدها ، وصلت إليها بفضل الثروة التى أفاءها عليها خلف كاره من جهة ، وبفضل القوة التى أوغرت عليها صلور الدول جميعاً من جهة أخرى ، ولهذا فإن القواعد التى رست عليها دعائم العصر الذهبى لم تكن سليمة ، وكان لابد أن تتقوض حين عجزت السيادة الأثينية عن تسيير دفة الحكم فى زمن السلم .

ولعل أثينة ، كما يشير توكيديلز ، كانت تستطيع أن تظفر بالنصر رغم هذا العجز ، لو أنها ظلت تسير على خطة فاييوس Fabius التى وضعها بيركليز . ولكن خلفاءه تعجلوا فى تنفيذ منهاج كان يتطلب كثيراً من ضبط النفس . فقد كان زعماء الحزب الديمقراطى الجدد تجاراً من نمط كليون تاجر الجلود ، ويكراتيز Eucrates بائع الحبال ، وهيربولس Hyperbolus صانع المصابيح . وكان هؤلاء الرجال يدعون إلى مواصلة الحرب فى البر والبحر ، وكان كليون أقدرهم جميعاً وأعظمهم كفاية ، وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم استهتاراً بالمبادئ الأخلاقية ، وأشدهم فساداً . ويصفه فلوطرخس بأنه « أول خطيب من الأثينيين خلع رداءه وضرب على فخذه وهو يخاطب الجماهير » (١٢) ، ويقول أرسطاطاليس إن كليون كان شديد الحرص على الظهور على المنصة فى ثياب العيال (١٣) . وكان على رأس

عدد كبير من الزعماء الشعبيين حكموا أثينة منذ مات بركليز إلى أن فقد الأثينيون استقلالهم يوم قيرونة Chaeronea (٣٣٥) .

وأثبت كليون كفايته عام ٤٢٥ حين حاصر الأسطول الأثيني جيشاً اسبارطياً في جزيرة اسفكتيريا Sphacteria القريبة من پيلس Pylus المسينية . ولاح أنه لا يوجد قائد بحرى يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فلما أن عهدت الجمعية إلى كليون الإشراف على الحصار (وكانت ترجو بعض الرجاء أن يقتل في الهجوم عليه) ، أدهش الناس كلهم بتوجيه الهجوم بمهارة وشجاعة أجبرتا اللسدمونيين على الاستسلام على غير عاداتهم . وأذل هذا الاستسلام اسبارطة فطلبت الصلح والتحالف مع أثينة نظير الإفراج عن أسراها ، ولكن كليون استطاع بفصاحته الخطائية أن يقنع الجمعية بأن ترفض هذا العرض وأن تواصل الحرب . وقويت سيطرته على الجماهير بعد أن عرض على الجمعية اقتراحاً أجازته من فورها يعنى الأثينيين فيما بعد من أداء الضرائب التي تتطلبها مواصلة الحرب ، على أن يؤخذ ما يلزمها من المال بزيادة الخراج الذي تؤديه المدن الداخلة في نطاق الإمبراطورية (٤٢٤) . وكانت السياسة التي يسير عليها كليون في هذه المدن ، كالسياسة التي يسير عليها في أثينة ، هي . أن يستولى من الأغنياء على أكبر قدر يجدهم عندهم من المال . ولما أذ ثارت الطبقات العليا في متليني ، ونبذت الحكم الديمقراطي ، وأعلنت تحرر لسيوس من ولائها لأثينة (٤٢٩) ، اقترح كليون أن يقتل جميع الذكور البالغين من سكان المدينة العاصية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح - ولعل الذين حضروا هذه الجلسة لم يكونوا سوى العدد القانوني الذي يصح أن تعقد بحضوره - وأرسلت سفينة تحمل أوامره بتنفيذه إلى پاکيز Pachcs القائد الأثيني الذي قمع الثورة . ولما أن ذاع نبأ هذا الأمر الوحشى في أثينة دعا العقلاء المعتدلون إلى عقد اجتماع ثان للجمعية ، واستصلدوا منها قراراً بإلغاء القرار السابق ، وأرسلوا سفينة أخرى أدركت پاکيز قبيل تنفيذ أمر

المذبحة . وبعث باكينز إلى أثينة ألفاً من زعماء الثوار ، قتلوا عن آخرهم لإجابة لاقتراح كليون وجرياً على سنة ذلك العصر (١٤) . وكفركليون عن ذنبه بأن مات في الميدان وهو يحارب البطل الاسبارطى براسيداس Brasidas الذى كان يستولى على المدن في شمال بلاد اليونان الأصلية والخاصة لأثينة أو المتحالفة معها مدينة في إثر مدينة . وهذه الحرب هي التي خسرها فيها توكيديلز منصبه البحري ومسكنه في أثينة من جراء تباطؤه في إنقاذ أمفبوليس المدينة التي كانت تتحكم في مناجم الذهب في تراقية . وقتل براسيداس في هذه الحرب نفسها ، فلم تجد اسبارطة زعيماً يستطيع مواجهة الهيلوتيين الذين كانوا يهددونهم بالثورة فعرضت الصالح مرة أخرى على أثينة ، وانصاعت أثينة للمرة الأولى لنصيحة الزعيم الأبحركى فووقت صلح نيشياس (٤٢١) . ولم تكن المدن المتحاربة بأن تعلن انتهاء الحرب ، بل ووقت شروط حلف يستمر نحسين عاماً ، وتعهدت أثينة أن تحف لمساعدة اسبارطة إذا ما ثار عليها الهياوتيون (١٥) .

الفصل الرابع

ألقبيادس

واجتمعت ثلاثة عوامل حولت هذا العهد الذى أخذته المدن اليونانية على نفسها بأن تدوم المودة بينها خمسين عاماً كاملة إلى هدنة مؤقتة لم تدم إلا ست سنين . وهذه العوامل الثلاثة هى : الفساد الذى طرأ على السلم فجعله « حرباً بوسائل أخرى » وقيام ألقبيادس على رأس حزب ينادى بامتشاق الجسام ؛ ومحاولة أثينة الاستيلاء على المستعمرات اللورية فى صقلية ، ورفض حلفاء اسپارطة أن يوقعوا شروط الاتفاق مع أثينة ، وانشقوا عليها بعد أن ذهبت قوتها ، وحولوا ولاءهم إلى أثينة ، واحتفظ ألقبيادس فى أثينة بالسلم رسمياً ، ولكنه كان فى واقع الأمر يعد العدة لمحاربة اسپارطة ، وحشد المدن اليونانية الموالية لأثينة فى واقعة دارت رحاها عند منتينيا Mantinea . (٤١٨) . وانتصرت اسپارطة فى المعركة ؛ وعقدت المدن اليونانية هدنة أخرى على الرغم منها .

وفى هذه الأثناء سیرت أثينة أسطولا إلى جزيرة ميلوس اللورية تطلب إليها أن تكون دولة خاضعة لسلطان الإمبراطورية الأثينية . (٤١٦) ، ويقول توكيديدلز - وأكبر الظن أن المؤرخ الذى فيه يخضع للفيلسوف السوفسطائى أو الطريد المنتقم - إن الرسل الأثينيين لم يبرروا اعتداءهم بأكثر من قولهم إن القوة هى الحق : ولقد أملت علينا الآلهة وعلمنا الناس أن هولاء وأولئك يحكمون أينما استطاعوا وفقاً لقانون محتوم متأصل فى طبيعتهم ، ولسنا نحن أول من سن هذا القانون أو عمل به ؛ لقد وجدناه قائماً من قبلنا ؛ وستركه قائماً سرمدياً من بعدنا ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله أن نسير على سننه ، لأننا نعرف أنكم أتمم وكل من عداكم من الناس ستفعلون فعلنا إذا أوتيتم ما أوتينا من قوة ، (١٦) . وأبى أهل

ميلوس أن يخضعوا وأعلنوا أنهم سيفوضون أمرهم إلى الآلهة ويضعون فيها ثقتهم . ولما أن وصلت بعدئذ إلى الأسطول الأثيني إمدادات لا قبل لهم بها استسلموا للغزاة الفاتحين بلا شرط ولا قيد . وأعدم الأثينيون كل من وقع في أيديهم من الذكور البالغين ، وباعوا النساء والأطفال بيع الرقيق ، وأقطعوا الجزيرة لحسامة من المستعمرين الأثينيين . وابتهجت أثينة بهذا الفتح المبين ، وشرعت من ذلك الحين تبرهن ، بما مثل بين جدرانها من مأس حية ، على ذلك المبدأ الذى مثله كتابها على المسرح ، وهو أن الانتقام الإلهي يتعقب الانتصار الوقح .

وكان ألقبيادس من أيدوا في الجمعية القرار القاضى بإعدام الذكور من أهل ميلوس (١٧) . وكان تأييده لكل اقتراح أيا كان نوعه يكتفى في الغالب لإقراره ، لأنه كان وقتئذ أقوى رجل في أثينة ، تعجب به لفصاحة لسانه ، ونباه طلعه ، وعبقريته المتعددة الكفايات ، بل تعجب به أيضاً لعيوبه وجرائمه . وكان أبوه أقلينياس Cleinias الثرى قد قتل في واقعة كورونيا Coronea ، وكانت أمه وهى القيمونية Alemaeomid تمت بالقرابة إلى بركليز ، قد أفتعت ذلك السياسى أن يربى ألقبيادس في منزله . وكان الغلام مشاكساً ، ولكنه ذكى شجاع ، حارب وهو في سن العشرين بجانب سقراط في بوتيديا Potidaea ، وحارب في السادسة والعشرين من عمره في واقعة دليوم Delium (٤٢٤) . ويبدو أن الفيلسوف كان يحس بعطف قوى على الغلام ، وأنه رده إلى الفضيلة ، كما يقول فلوطرخس ، بألفاظ ، « بلغ من تأثيرها في ألقبيادس أن استدرت الدمع من عينيه ، وأقلقت باله ، ولكنه مع ذلك كان يسلم نفسه أحياناً للمتلققين ، حين كانوا يعرضون عليه ألواناً من الملاذ ، فهجر سقراط ، ويأخذ الفيلسوف في مطاردته كأنه عبد آبق » (١٨) .

وكانت بدنية الشاب الوقادة ومجونه حديث الناس في أثينة وموضع دهشتهم وإعجابهم . ولما أن عاب عليه بركليز تكبره واستبداده برأيه بقوله إنه لم يفعل فعله هو مع أنه هو الآخر كان زلق اللسان في صباه ، رد عليه ألقبيادس

بقوله : « أشد ما آسف له أنني لم أعرفك حين كان عقلك في عنفوانه » (١٩) .
وأراد مرة أن يرد على تيمدى أحد رفاقه المتهورين الصخابين فصفع رجلا من
أغنى الأثنيين وأشدهم بطشاً يدعى هبونكس Hipponicus على وجهه ،
ثم دخل في اليوم الثاني بيت ذلك العظيم ، وخلع ملابسه ، ورجا هبونكس
أن يضربه بالسوط عقاباً له على فعلته . وتأثر الشيخ بفعل الشاب فزوجه بابنته
هيريقي ومهرها بعشر وزنات ، وأقنعه ألقبيادس بأن يضاعف المهر وأنفق
معظمه على نفسه ، وعاش عيشة بلغت من الترف درجة لم تعرف أثينة مثلاً
من قبل . فقد ملأ بيته بالأثاث الثمين ، واستخدم الفنانين في رسم الصور
على الحدران ، وجمع طائفة من جياد السباق ، فاز بها مراراً في سباق
المركبات في أولبيا . وقد فازت خيله في إحدى هذه المباريات بالجوائز الأولى
والثانية والرابعة فما كان منه إلا أن أولم وليمة لجميع أعضاء الجمعية (٢٠) .
وكان في بعض الأحيان يعد السفن ويؤدى نفقات الممثلين من ماله الخاص ،
وإذا ما طلبت الدولة تبرعات للحرب من أبنائها كان هو أكبر المتبرعين .

ولم يكن ألقبيادس يتقيد بواعز من ضمير أو عرف أو بخوف ، ولهذا
كان يعذب في صباه وكهولته عبثاً بهيمياً ، وكان أثينة بقضها وقضيضها كانت
تستمتع معه بسعادته . وكان يلعب قليلاً في نطقه تلعباً بلغ من سحره أن
أصبح التلعب الطراز الشائع بين شباب أثينة العصريين ، واحتذى مرة طرازاً
جديداً من الأحذية ، فلم يلبث شباب المدينة الأثرياء المتأنقون أن لبسوا
أحذية ألقبيادس ؛ وقد خرج على مائة قانون ، وأساء إلى مائة رجل ،
ولكن أحداً لم يجرؤ على مقاضاته . وقد بلغ من حب السرارى له أنه نقش
على درعه الذهبي صورة لإله الحب وإلى جانبه صاعقة كأنه يعلن بذلك
انتصاراته في الحب (٢١) ، وصبرت زوجته على خياناته صبر الكرام ، فلما
تمادى فيها عادت إلى منزل أبيها وأخذت تستعد لمقاضاته طلباً للطلاق ، ولما
ظهرت أمام الأركون ، احتضنها ألقبيادس ، وسار بها إلى منزله مخترقاً السوق

العامة دون أن يجروا لإنسان على اعتراضه فلم يسعها والحالة هذه إلا أن تطلق له العنان ، وأن تقنع منه بفئات حبه ، ولكن موتها المبكر يوحى بأنها ماتت كسيرة القلب بسبب خياناته الزوجية .

ولما أن دخل ميدان السياسة بعد موت بركليز لم يجد فيه إلا منافساً واحداً له ، هو نيشياس الثرى التقي . ولكن نيشياس كان ضالماً مع طبقة الأشراف جانحاً للسلم ، ومن أجل هذا شرع القيادس يخصص بعطفه طبقات التجار ، ويدعو إلى النزعة الاستعمارية دعوة أثارت كبرياء الأثنيين . وكان صلح نيشياس مشيناً في نظره لأنه يحمل اسم منافسه . ولما اختير في عام ٥٢٠ قائداً من عشرة قواد بدأ يضع تلك الخطط الطموحة التي قذفت بأثينة مرة أخرى في معمعان القتال ، ولما أن هتمت له الجمعية ابتهج لها تيمون Timon كاره المجتمع وتنبأ بما سوف يحل بها من الفواجع (٢٢).

الفصل الخامس

المغامرة الصقلية

كان خيال القياداس هو الذى أفسد عمل بركليز . ذلك أن أثينة قد انتعست بعد ما حل بها من كوارث الحرب ، وأخذت التجارة تدر عليها ثروة جزائر بحر إيجه . لكن القانون الطبيعى الذى يخضع له كل كائن حي هو قانون النماء الذاتى ؛ فأما المطامع والإمبراطوريات فلا تقنع أبداً بما تبلغ ؛ ولا تقف أبداً عند حد . وكان القياداس يطمع فى أن يبنى لأثينة إمبراطورية جديدة فى مدائن إيطاليا وصقلية الغنية ، حيث تستطيع أن تجد الغلال ، والمواد ، والرجال ، وحيث تستطيع أن تسيطر على موارد الطعام .

الپلويونيز ، وتضاعف الخراج الذى كان يوشك أن يجعلها أعظم المدن اليونانية ؛ ولم يكن فى وسع أية مدينة أن تنافسها غير سرقوصة ، ولم تكن هى تطبيق التفكير فى هذه المنافسة ، وكانت ترى أنها إن استولت على سرقوصة خضع لسلطانها جميع حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، ونالت أثينة من المجد ما لم يحلم به بركليز نفسه :

وحدث فى عام ٤٢٧ أن حذت صقلية حذو بلاد اليونان الأصلية فانقسمت إلى معسكرين متنازعين ، تزعم أحدهما سرقوصة الدورية ، وتزعم الأخرى ليوننتى Leontini الأيونية . وأرسلت ليوننتى غورغياس إلى أثينة يستنجد بها ، ولكن أثينة كانت وقتئذ أضعف من أن تغيث مستغيثاً .

وفى عام ٤١٦ أرسلت بھستا رسلا إلى أثينة يبلغونها أن سرقوصة تعد العدة لتخضع صقلية كلها ، وتفرض عليها حكومة دورية ، وتمد اسبارطة بالمون والأموال إذا ما تجددت الحرب الكبرى . واغتم القياداس هذه الفرصة السانحة وقال إن اليونان فى صقلية منقسمون على أنفسهم انقساماً لا يرجى من ورائه لهم

خبر ، وإن كل مدينة فيها منقسمة على نفسها ، وإن من أيسر الأمور وبقليل من الشجاعة أن تضم الجزيرة كلها إلى الإمبراطورية ، وإن من أوجب الواجبات أن تظل الإمبراطورية تسع رقعتها ، وإلا فلا مناص لها من أن تبدأ في الاضمحلال ، وإن الشعب الذي يريد أن تكون له إمبراطورية في حاجة إلى مناوشة من آن إلى آن لتدريبه على أساليب حكم الشعوب (٢٢) .

وقام نيشياس في الجمعية يعارضه ويطلب إليها ألا تستمع لرجل يغريه بلنخه بالإقدام على مشروعات التوسع الخيالية ، ولكن بلاغة ألقبيادس وخيال شعب تحلل الآن تحللاً خطيراً من المبادئ الأخلاقية تغلباً على حجج نيشياس ، وأعلنت الجمعية الحرب على سر قوصة ووافقت على الأموال اللازمة لإعداد أسطول ضخم لغزوها ، وكأنا ما أرادت أن تجعل هزيمة أثينة مؤكدة فوزعت القيادة بين ألقبيادس ونيشياس .

وسارت الاستعدادات على قدم وساق مدفوعة بالحاسة الشديدة التي هي من أخص خصائص الحرب ؛ وأخذ الأهليون ينتظرون سفر الأسطول ليحتفلوا به احتفالاً وطنياً عظيماً . ولكن حدث قبل اليوم المحدد لسفره بأيام قلائل حادث عجيب هز مشاعر المدينة التي كانت قد فقدت كثيراً من تقواها وإن لم تفقد شيئاً من خرافاتها وأوهانها . وتفصيل ذلك أن أشخاصاً مجهولين تسللوا في جنح الظلام وحطموا أنوف تماثيل الإله هرمس ، وآذاتها ، وأعضاء تذكيرها . وكانت هذه التماثيل قائمة أمام المباني العامة وكثير من المساكن الخاصة رمزاً للإخصاب ووقاية لها من كل سوء . وجاء باحث متحمس يفضي إلى القوم بشهادة لا سند لها منقولة عن جماعة من الغرباء والأرقاء يقولون فيها إن هذا العبث من فعل طائفة من أنصار ألقبيادس السكاري . بزعامة ألقبيادس نفسه . واحتج القائد الشاب على هذا القول وحاول أن يبرئ نفسه منه ، وطلب أن يقدم إلى المحاكمة على الفور ، حتى يدان أو يبرأ قبل سفر الأسطول . ولكن أعداءه الذين كانوا يتوقعون صدور الحكم ببراءته ، أفلحوا في تأجيل المحاكمة : وعلى هذا أبحر الأسطول

العظيم في عام ٤١٥ ، وقد عقد لوائه لداعية من دعاة السلم خوار القلب
يغض الحرب ، ورجل جرىء من أنصار الحرب ، يقف توزيع القيادة
ونخشية البحارة أن يكون قد استحق غضب الآلهة ، حاثلا بن عبقرته
وبين الجهود التي لا بد من بذلها لنيل النصر . ولم تكذ تمضى على سفر
الأسطول بضعة أيام حتى وردت أدلة كالأدلة السابقة لا سند لها يؤيدها
ولا يمكن الوثوق بها تقول إن ألقبيادس وأصدقائه قد اشتركوا في تمثيل
الطقوس الإلوريتية الخفية تمثيلا هزليا ساخرآ . وأسرت الجمعية تدفعها
الجاهير الهاججة الغاضبة ، فأرسلت السفينة السريعة سلامينيا Salaminia
للحاق بألقبيادس وإعادته إلى أثينة ليقدم فيها للمحاكمة . وقبل ألقبيادس
الدعوة ، وانتقل إلى سلامينيا ؛ ولما أن رست السفينة عند ثورباى نزل إلى
البر خفية وفر هاربا . فلما أن غلبت الجمعية الأثينية على أمرها أصدرت
حكمها بنفيه ومصادرة جميع أملاكه ، وإعدامه إذا ما استطلاع الأثينيون
القبض عليه . واستولى عليه الحزن إذ رأى أن مشروعاته التي تهدف
إلى مجد أثينة وتوطيد دعائم إمبراطوريتها قد قضى عليها من جراء حكم لا يزال
يعسده ظالما ، فلجأ إلى البلوونيز ، وحضر لإحدى جلسات الجمعية
الاسبارطية ، وعرض أن يساعد إسبارطة على هزيمة أثينة وإقامة حكومة
أرستقراطية فيها . ويقول توكيديدز على لسانه : « أما الديمقراطية فإن
العقلاء منا يعرفون حقيقة أمرها ، ولست أنا أقل علما بذلك من أى واحد
منهم ، لأن عندي من أسباب الشكوى منها أكثر مما عندهم ، ولكنى
لا أجد شيئا جديداً أذكره عن هذا السمخف المتأصل فيها » (٢٤) . وأشار
على الاسبارطيين أن يسيروا أسطولا لمساعدة سرقوصة ، وجيشا للاستيلاء
على دسيلييا Deceleia -- وهى مدينة فى أنكا إذا استولت عليها اسبارطة
تحكمت عسكرياً فى أنكا بأجمعها ما عدا أثينة ، فتمنع بذلك مناجم الفضة
فى لورديوم أن تمتد أثينة بالأموال التى تمكنها من مقاومة الغزو ، حتى إذا

رأت المدن الخاضعة لأثينة أن هزيمتها محققة امتنعت عن أداء الجزية . وعملت اسبارطة بهذه النصيحة .

وظهرت قوة عزيمته حين نبذ ما تعودته في حياة الترف وعاش كما يعيش الاسبارطيون متقشفاً ، مقتصداً ، متحفظاً ، يأكل غليظ الطعام ، ويلبس خشن الثياب ، ويسير حافي القدمين ، ويستحم في نهر اليوروتاس Eurotas صيفاً وشتاء ، ويطيع قوانين لسدمونيا وعاداتها عن وفاء وإخلاص . لكن طلعت البهية ، وجاذبته رغم هذا كله أفسدتا عليه خططه ، فقد هامت الملكة بجبهه ، وحملت منه بولد ، وأسرت إلى أصدقائها في زهو وفخار أنه أبوه . واعتذر هو لأصدقائه عن فعلته هذه بأنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في أن يكون ملوك لكونيا من نسله . وجاء الملك أچيس إلى بلده ، وكان متغيباً عنه مع جيشه . وعلم أقيادس بذلك فحصل على منصب في قسم من أسطول اسبارطة كان مسافراً إلى آسية . وتبرأ الملك من الطفل ؛ وبعث بأوامر سرية تقضى باغتيال أقيادس ، ولكن أصدقاءه حذروه من هذا ، ففر وانضم لطشفرن Tissaphernes قائد الأسطول الفارسي في سرديس .

وكان نيشياس يواجه في الطرف الآخر من ميدان القتال مقاومة لا يستطيع التغلب عليها إلا عبقرية أقيادس العسكرية ومهارته في حيلك الدسائس وتدبير المؤامرات . ذلك أن صقلية بأجمعها تقريباً خفت لمساعدة سرقوسة . وفي عام ٤١٤ استطلاع أسطول صقلية بمساعدة أسطول اسبارطي يقوده جيلبس Gylippus أن يحصر السفن الأثينية الحربية في ميناء سرقوسة ويمنع عنها الطعام . وفقدت هذه السفن آخر فرصة أتاحت لها للخروج من هذا المأزق حين نخسف القمر فارتاع لذلك نيشياس وكثيرون من جنوده وحملهم هذا الروع على أن ينتظروا فرصة أخرى أكثر من هذه لإرضاء للآلهة ، لكنهم في اليوم الثاني وجدوا أنفسهم يحيط بهم أعداؤهم فاضطروا كارهين

أن يخوضوا المعركة ، ومنوا بالهزيمة في البحر أولاً ثم في البر بعدئذ .
وحارب نيشياس رغم ضعفه ومرضه ببسالة ، ولكنه أسلم نفسه آخر الأمر
لرحمة السرقوصيين ، فلم يكن منهم إلا أن أعلموه ؛ ثم أرسل من بقي على
قيد الحياة من الأثينيين ، وكانوا كلهم من طبقة المواطنين ، إلى العمل
في مناجم صقلية ، حيث ذاقوا طعم الحياة التي ظل يجهاها عدة أجيال أولئك
الذين ظلوا عدة قرون يكسحون في استخراج الفضة من مناجم لوريوم
وهلكوا فيها كما هلك هؤلاء .

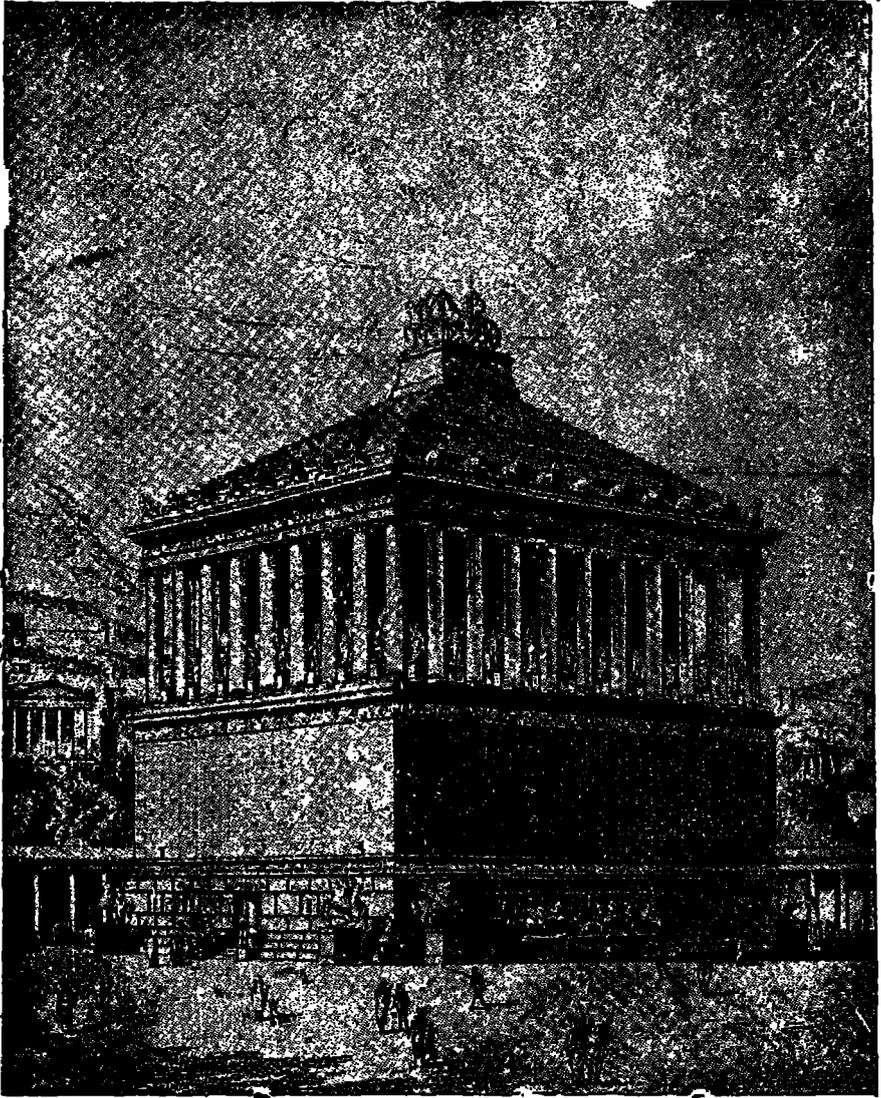
الفصل السادس

انتصار اسبارطة

وقضت هذه الكارثة على روح أثينة المعنوية ، فقد هلك أو استرق فيها نصف مواطنيها تقريباً ، وترمل نصف هذه الطبقة من النساء ، وتيتم نصف الأطفال . ولم يكذب يبق لها شيء من الأموال التي جمعها بركليز في خزائنها ، وكان عام آخر كفيلاً باستنفاد كل درهم فيها . وحسبت المدن الخاضعة لأثينة أنها ساقطة لا محالة فامتنعت عن أداء الجزية ، وتحلف عنها معظم حليفاتها وانضمت الكثيرات ممن إلى اسبارطة . وفي عام ٤١٣ ادعت اسبارطة أن أثينة قد خرجت أكثر من مرة شروط صلح « الخمسين عاماً » فأعلنت إليها الحرب من جديد ، واستولى اللسديمونيون في هذه المرة على ديسيليا ، وحاولوا دون وصول الطعام إليها من عرية والفضة من لوريوم . وتمرد الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه المناجم ، وانضموا بكامل عددهم البالغ عشرين ألف رجل إلى الاسبارطيين . وبعثت سرقوصة جيشاً لينضم إلى المهاجمين ، ورأى ملك الفرس الفرصة سانحة ليثأر لنفسه من هزيمة مرثون وسلاميس ، فأمد بالمال الأسطول الاسبارطي الناشئ ، بعد أن اتفق مع اسبارطة ذلك الاتفاق المشين ، وهو أن تساعد الفرس على أن يستعيدوا سيادتهم على مدائن أيونيا اليونانية (٢٥) .

ومما يدل على شجاعة الديمقراطية الأثينية وما كان فيها من حية أن أثينة استطاعت أن تقاوم أعداءها عشر سنين أخرى ، فقد نظمت حكومتها تنظيماً راحته فيه قواعد الاقتصاد ، وجددت في جمع الضرائب وفرض الإعانات لبناء أسطول جديد ، فلم تكذب تضي سنة على هزيمتها في سرقوصة

حتى أصبحت متأهبة لأن تنازع اسبارطة سيادتها الجديدة على البحار . ولما كاد انتعاش أثينة يبدو أمراً مؤكداً نظم الحزب الأبحركى ثورة في البلاد ، واستولى على أزمة الحكم وأنشأ مجلساً أعلى قوامه أربعائة ألف (٤١١) . ولم يكن أعضاء هذا الحزب في يوم من الأيام في جانب الحرب ، بل إنهم كانوا في واقع الأمر يودون لو انتصرت اسبارطة على أثينة لتنتعش فيها الأرستقراطية : واستولى الرعب على الجمعية بعد أن اغتيل كثيرون من زعماء الديمقراطية فاقترعت على أن تكتفى نفسها بنفسها . وناصر الأغنياء الثورة لأنهم رأوا فيها الوسيلة الوحيدة للقضاء على حرب الطبقات التي وحدث صفوف الطبقات المتماثلة في أثينة واسبارطة ، كما وحد كفاح الطبقات الوسطى ضد الأرستقراطية أحزاب الأحرار في إنجلترا وأمريكا إبان الثورة الأمريكية . وما كاد الأبحركيون يستولون على أزمة الحكم حتى أرسلوا الرسل لعقد الصلح مع اسبارطة ، وأخذوا يمهدون السبيل سراً لدخول الجيش الإسبارطى في أثينة . وفي هذا الوقت تولى ثرمينز ، وهو زعيم حزب وسط من الأرستقراط المعتدلين ، ثورة مضادة للثورة السالفة الذكر ، واستبدل بمجلس الأربعائة الذى تولى الحكم نحو أربعة أشهر مجلساً آخر من خمسمائة عضو (٤١١) ، واستمعت أثينة فترة قصيرة بحكم ديمقراطى أرستقراطى مشترك كان في نظر توكيديدنز وأرسطاطاليس^(٣٦) (وكلاهما من الأشراف) خير ما رآته أثينة بعد عهد صهولون من أنظمة الحكم وأكثرها عدلا . ولكن الثورة الثانية نسيت ، كما نسيت الثورة الأولى ، أن طعام أثينة وحياتها نفسها يعتمدان على أسطولها ، الذى حرمت الثورتان رجاله عدداً قليلاً من زعمائهم من حقوقهم السياسية . وثارث نائرة البحارة حين سمعوا هذا الخبر ، فأعلنوا أنهم سيحاصرون أثينة إن لم تعد إليها حكومتها الديمقراطية . وانتظر الأبحركيون قدم الجيش الاسبارطى ولكن الاسبارطيين تباطأوا شأنهم في كل مرة ، وولى أحكام الجلد الأدبار ، وأعاد الديمقراطيون المنتصرون الدستور القديم (٤١١) .



(ننگر ۲۹) فریج فلکرنس

وكان ألقبيادس قد أيد الثورة الأبحركية سرآ ، وكان يرجو أن تمهد السبيل لعودته إلى أثينة ، فلما عادت الديمقراطية إلى سابق عهددها استدعته إليها ووعدهته بالعفو عنه ؛ ولعلها كانت تجهل دسائسه ، ولكنها كانت تعرف بلا ريب سيئات الحكومات التي توالى عليها بعد نفيه منها . غير أن ألقبيادس أرجأ عودته ظافراً إلى أثينة ، وتولى قيادة الأسطول المرابط عند ساموس ، وأقدم على العمل بسرعة ونجاح سعدت بهما أثينة فترة قصيرة من الزمان . فقد اجتاز الهلسبنت مسرعاً ، والتقى بأسطول اسپارطى عند سزكس Cyzicus ودمره تدميراً تاماً تاماً (٤١٠) . ثم حاصر خلقيدون وبيزنطية حصاراً دام عاماً كاملاً استولى بعده عليهما وأعاد بذلك إلى أثينة سيطرتها على مواد الطعام المارة بالبسفور . ثم عاد بأسطوله نحو الجنوب فالتقى بجماعة اسپارطة أخرى قرب جزيرة أندروس وهزمها دون عناء . ورجع بعدئذ إلى أثينة (٤٠٧) ، فحياه أهلها على بكرة أبيهم أحسن تحية واستقبلوه أحسن استقبال . لقد نسوا وقتئذ ذنوبه ولم يذكروا إلا عبقريته وحاجة أثينة الشديدة إلى قائد قدير مثله (٢٧) . ولكن أثينة وهى تحفظ بانتصاراته لم ترسل إليه المال الذى يؤدى به رواتب بحارة أسطوله . وهنا أيضاً قضى على ألقبيادس عدم استمساكه بالمبادئ الأخلاقية الكريمة . ذلك أنه ترك الجزء الأكبر من أسطوله عند نوتيوم Notium (قرب إفسوس) تحت إمرة رجل يدعى أنتيكس Antiochus ، وأمره أن يبقى فى الميناء وألا يشتبك فى القتال مهما تكن الأسباب ، ثم سار هو ومعه عدد قليل من السفن إلى كاريا Caria ليجمع منها المال إلى رجاله بأساليب لا يرضى عنها القانون . وطمع أنتيكس فى الشهرة فغادر الميناء ، وتحدى أسطولا اسپارطيا صغيراً بقيادة ليسندر Lysander فقبل هذا القائد التحدى ، وقتل أنتيكس بيده وأغرق معظم سفائن الأسطول الأثينى أو استولى عليها (٤٠٧) . ولما علمت أثينة بهذه الفاجعة ، وكان لها فى الجمعية رد فعل سريع ، فقد اجتمعت من فورها ووجهت اللوم إلى ألقبيادس

لتركه أسطوله وعزلته من قيادته . وأصبح القيادس يخشى أثينة واسهارطة على السواء ، فلم ير بدأ من الالتجاء إلى بيثينيا Bithynia .

وأمرت أثينة في ياسها أن يصهر ما في التماثيل والقرايين القائمة على الأكربوليس من ذهب وفضة ، وأن ينفق هذا كله في بناء أسطول جديد من مائة وخمسين سفينة ذات ثلاث صفوف من المجاديف ، ثم قررت أن تعتق الأرقاء ، وتمنح حقوق المواطنة للغرباء ، الذين يدافعون عن المدينة ، وهزم الأسطول الجديد عمارة اسهارطية بالقرب من جزائر أرجنوسى Arginusae (جنوب لسيوس) في عام ٤٠٦ ، واهتزت مشاعر أثينة مرة أخرى بنشوة الظفر ، ولكن الجمعية استشاطت غضباً حين سمعت أن قوادها(*) قد تركوا بحارة خمس وعشرين سفينة من السفن التي أغرقها العدو يموتون غرقاً على أثر عاصفة بحرية . ونادى المتحمسون أن أرواح هؤلاء الغرقى الذين لم يدفنوا طبقاً للمراسم المرعية ، ستطوف قلقة حوالى العالم ؛ واتهموا الباقيين على قيد الحياة بإهمالهم إنقاذ الغرقى ، واقترحوا أن يحكم بالقتل على ثمانية من القواد المتصرين (ومنهم ابن بركليز من أسبازيا) . وتصادف أن كان سقراط عضواً في لجنة الرياسة في ذلك اليوم فأبى أن يعرض هذا الاقتراح على الجمعية . ولكنه عرض ووافقت عليه على الرغم منه ، ونفذ الحكم بنفس السرعة التي صودق بها عليه . وماهى إلا أيام قلائل حتى ندمت الجمعية على فعلتها ، وحكمت بالإعدام على من أقتنوها بقتل القواد : وفي هذه الأثناء ترض الاسبارطيون ، بعد أن أوهنتهم الهزيمة ، أن يعقدوا الصلح مرة أخرى ، ولكن الجمعية الأثينية رفضت هذا العرض متأثرة ببلاغة كنيوفون المخمير (٢٨) .

واتجه الأسطول الأثيني بعدئذ نحو الشمال ، تحت إمرة قواد من الطبقة

(ه) كان لفظ استراتيجوس Strategos يطلق على قواد الجيش والأسطول على السواء .

الثانية ، ليلاقى الاسبارطين بقيادة ليسندر في بحر مرمرة . ورأى ألقبيادس من مخبئه بين التلال أن السفن الأثينية قد اتخذت لها موضعاً شديداً الخطورة عند إيجسبوتامى Aegospotami قرب لمپسكس Lampascus ، فما كان منه إلا أن خاطر بحياته ونزل إلى الشاطئ على ظهر جواده ، ونصح أمراء البحر الأثينيين أن يبعثوا لهم عن موضع أقل تعرضاً للخطر من موضعهم ؛ ولكنهم لم يثقوا بنصحه ولم يعملوا به ، وذكروه بأنه لم يعد له شأن بالقيادة . وفي اليوم الثاني حدثت المعركة الفاصلة ، وأغرقت فيها مائتان من سفن الأسطول الأثيني المائتين والثمان ، أو استولى عليها العدو ، وأمر ليسندر بقتل ثلاثة آلاف من الأسرى الأثينيين^(٢٦) . وترأى إلى ألقبيادس أن ليسندر قد أمر بقتله ، ففر إلى فريجييا مع القائد الفارسي فرنيزوس Pharnapazus الذى وهبه قصرأ وحظية . ولكن ملك فارس أمر فرنيزوس بأن يقتل ضيفه عملاً بنصيحة ليسندر . وحاصر اثنان من القتلة ألقبيادس في قصره ، وأشعلا النار فيه ، فخرج منه عاريا يائسا ، يريد أن يقاتل دفاعا عن حياته ، ولكن سهام مهاجميه وحربتيهما اخترقت جسمه قبل أن يمسهما سيفه فقضى نحبه في السادسة والأربعين من عمره ؛ وكان أعظم العباقره في تاريخ اليونان العسكرى ، كما كان إخفاقه. أعظم الفواجع في هذا التاريخ .

وأصبح ليسندر بعدئذ صاحب السلطان المطلق في بحر إيجه ، فأخذ يتنقل بأسطوله من مدينة إلى مدينة ، يقضى على الديمقراطيات ويقم مكاها حكومات أجزكية خاضعة لاسبارطة ، ثم دخل ثغر بيرية من غير أن يلقى مقاومة ، وضرب الحصار على أثينة ، وقاومه الأثينيون ببسالتهم المعهودة ، ولكن ما كان لديهم من الطعام لم يكفهم أكثر من ثلاثة أشهر ، وامتلأت طرقات المدينة بالموتى أو المحتضرين . وعرض ليسندر على أثينة شروطاً للصالح مذلة ولكنها رحيمة . فقد قال إنه لا يريد أن يخرّب مدينة أدت في الماضى خلعتم مشرفة إلى بلاد اليونان ، ولن يريد فوق ذلك أن يستعبد أهلها ،

ولكنه طلب ذلك الأسوار الطويلة واستدعاء الأبحر كين المنفين ، وتسليم جميع ما كان باقياً من أسطوطها عدا ثمان سفن ، وأن تقطع على نفسها عهداً بأن تساعد اسبارطة مساعدة جديدة في كل حرب تخوض عمارها في المستقبل . واحسجت أثينة على هذه الشروط ولكنها قبلتها صاغرة .

واستولى الأبحر كيون العائدون بزعامة أفريتياس وثرمنيز على أزمة الحكم بتأييد ليسندر ، وألقوا مجلساً من ثلاثين عضواً ليحكم أثينة (٤٠٤) . ولم يفد هؤلاء العائدون من دروس الماضي شيئاً ، كما لم يفد منها آل بربون Bourbon بعد أن عادوا إلى حكم فرنسا . فقد صادروا أموال كثيرين من أغنياء التجار ، وأوغروا عليهم صدورهم . ونهبوا أموال الهياكل ، وباعوا بثلاث ووزنات أروضة بيرية التي كلفت أثينة ألف وزنة (٣٠) ، ونفوا من المدينة خمسة آلاف من الديمقراطيين ، وأعدموا ألفاً وخمسمائة آخرين ؛ وقتلوا جميع الأثينيين الذين لم يكونوا هم راضين عنهم لأسباب سياسية أو شخصية ؛ وقضوا على حرية التعليم والاجتماع ، والكلام ؛ وحرّم أفريتياس على سقراط ، وقد كان يوماً ما تلميذ هذا الفيلسوف ، أن يواصل أحاديثه العامة . وأراد الثلاثون أن يعرضوا الفيلسوف للشبهات ويضموه إلى قضيتهم فأمره هو وأربعة غيره أن يقبضوا على ليون Leon الديمقراطي ، فأطاع الأربعة أمرهم ورفضه سقراط .

وازدادت جرائم الأبحر كين وتضاعفت إلى حد أنسى الأثينيين أوزار الديمقراطية ، فأخذ عدد من يريدون التخلص من هذا الطغيان الدموي ، ومن بينهم كثيرون من ذوى اليسار ؛ يزداد يوماً بعد يوم ؛ ولما أن اقترب من بيرية ألف من الديمقراطيين الملججين بالسلاح بقيادة ثرازيبولس Thrasypulus لم يكد الثلاثون يجدون من يدافع عنهم غير شيعتهم الأقرين . ونظم أفريتياس جيشاً صغيراً ، وخرج هو إلى ميدان القتال فهزم وقتل . ودخل ثرازيبولس

أثينة وأعاد إليها الحكم الديمقراطي (٤٠٣) . وسارت الجمعية بإرشاده سيراً معتدلاً لم تألفه من قبل ، فلم تحكم بالإعدام إلا على أكابر من بقوا على قيد الحياة من زعماء الثورة ، وسمحت لهم بالنجاة من هذا الحكم بالخروج من المدينة ؛ ثم أعلنت العفو العام عن جميع من ساعد الأبركيين من غير هؤلاء الزعماء ، بل إنهم ردت إلى اسبارطة المائة الوزنة التي أعارها حكامها إلى الثلاثين (٣١) . وأعادت هذه الأعمال المنطوية على كثير من الإنسانية وحسن السياسة إلى أثينة ذلك السلام الذي حرمت منه جيل من الزمان .

الفصل السابع

موت سقراط

من أغرب الأشياء أن العمل القاسى الوحيد الذى ارتكبه الديمقراطية بعد عودتها ، قد ارتكبه مع فيلسوف طاعن فى السن تحول سنوه السبعون بينه وبين القيام بأى عمل يضر الدولة . ولكن كان بين زعماء الحزب المنتصر ذاك الأنيتوس Anytus الذى هدد قبل عدة سنين من ذلك الوقت بأن ينتقم لنفسه من سقراط لبعض إهانات لحقته من جدله ، ولأن الفيلسوف « أفسد » ابنه . وكان أنيتوس هذا رجلاً صالحاً ، حارب ببسالة تحت إمرة ثرازابولس ، وأنقذ حياة بعض من أسرهم جنوده من الأبركيين . وكانت له يد فى إصدار العفو العام ؛ وسمح للذين ابتاعوا أملاكهم ، بعد أن صادر الثلاثون الأملاك ، أن يتبقوها لأنفسهم لا ينازعهم فيها منازع . ولكنه لم يحتفظ بهذه الصفات الكريمة فى معاملته لسقراط . فهو لم ينس أن ابنه بقى مع سقراط وصار سكيراً عربيداً بعد أن ذهب هو إلى منفاه (٣٢) ؛ ولم يخفف من حقه على الفيلسوف أن سقراط أبى أن يطيع الثلاثين وأعلن أن أفريتياس حاكم ظالم (هذا إذا كان لنا أن نصدق رواية أكسانوفون عن هذا الحادث (١٣)) . فقد بدأ لأنيتوس أن تأثير سقراط فى الأخلاق وفى السياسة أسوأ من تأثير أى سوفسطائى آخر ، وأنه يقوض دعائم العقيدة الدينية التى كانت تستند إليها الأخلاق ، وأن انتقاداته الدائمة كانت تضعف إيمان الأثينيين المتعلمين فى الأنظمة الديمقراطية* . وبدا لأنيتوس أن من الخير أن يخرج سقراط من أثينة أو أن يموت .

(*) لقد انتزع أفريتياس رأيتيادس عن سقراط فى أوائل عهدته بالتدريس لأنهما لم يقبلا القيود التى كان يدعو إليها .

ووجه الاتهام إلى سقراط أنيتوس ، وملاتوس ، وليقون في عام ٣٩٩ وكان نصه : « أن سقراط مذنب عام لأنه لا يعترف بالآلهة التي تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية » (الديمونيون السقراطية) ؛ « وأنه مذنب كذلك لأنه أفسد الشباب » (*)(٣٥) . وجرت المحاكمة أمام محكمة شعبية (ديكاستريون Dikasterion) مؤلفة من حوالي خمسمائة من المواطنين معظمهم ممن لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم . وليس لدينا وسيلة نعرف بها ما في رواية أفلاطون وأكسانوفون الخاصة بدفاع سقراط عن نفسه من دقة ؛ وكل ما نعرفه محققاً أن أفلاطون شهد المحاكمة بنفسه (٣٧) ، وأن روايته عن اعتذار سقراط تتفق في كثير من المواضع مع رواية أكسانوفون . يقول أفلاطون إن سقراط قد أكد أنه يؤمن بألوهية الشمس والقمر نفسيهما . « تقولون أولاً إنى لا أؤمن بالآلهة ثم تقولون بعدئذ إنى أؤمن بإنصاف الآلهة... إن مثلكم في هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير (٣٨) » ثم أشار وهو مكتئب حزين إلى ما كان لبقاء أرسطوفان من أثر فعال :

« لقد اتهمنى كثيرون ، اتهمونى فى الزمن القديم ، وظلت تهمهم الكاذبة تطاردنى كثيراً من السنين ؛ وأنا أخشاهم أكثر مما أخشى أنيتوس ورفاقه . . . لأنهم بدعوا يتهموننى وأتم أطفال ، واستحوذوا بأكاذيبهم على عقولكم ، إذ حدثوكم عن شخص يسمى سقراط ، وهو رجل حكيم ، يفكر فى السموات العلاء ، ويفحص عن الأرض من تحتنا ، ويجعل أسوأ الأسباب تبدو للعين كأنها أحسنها . أولئك هم المتهمون الذين أخشى بأسهم ، لأنهم هم الذين ينشرون

(*) يعتقد كروازيه Croiset أن سبب الاتهام الحقيقى هو عداة زراح أتكا لكل من يشير الشك فى آلهة الدولة . فقد كان من أشهر أسواق الماشية سوق تقام ليشتري منها الأتقياء الصالحون ما يقربونه للآلهة من الماشية . وكان أى نقص فى العقيدة اتدنية يجب الكساد لهذه السوق ، وكان أرسطوفان وهو يعلل العداة على هذا النحو إنما ينطق بلسان أولئك الزراع الذين تعرض عليهم مسرحياته إذ نجحت مراراً كثيرة (٣٧)

هذه الشائعة ، وسرعان ما ينخيل إلى المستمعين ليهم أن من يفكر هذا التفكير لا يؤمن بالآلهة . وما أكثر هؤلاء ، وما أقدم التهم التي يوجهونها إلى ، وقد كانوا يوجهونها أثناء طفولتكم التي ينطبع فيها كل شيء قوياً في عقولكم ، أولعلمهم وجهوها إلى في أثناء شبابكم ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن التهمة إذا وجهت ولم تجد من يفندھا ثبتت في العقول . وأصعب ما في الأمر كله أنني لا أستطيع ذكر أسمائهم لأنني أجهلها ، اللهم إلا اسم واحد عرفته مصادفة وهو شاعر هزلي . . . تلك هي حقيقة التهم الموجهة إلى ، وهذا هو الذي رأيتموه بأعينكم في مسلاة أرسطوفان (٣٩) .

وهو يقول إنه مكلف برسالة إلهية هي أن يهدى الناس إلى الحياة الصالحة البسيطة ، وإنه لن يمتنع عن إبلاغ الناس هذه الرسالة أياً كان ما يهدد به . « ولو فعلت لكان مسلماً عجيباً بحق . أي رجال أثينة ، إذا كنت وأنا تحت إمرة القواد الذين اخترتموهم رؤساء على في بوتيديا ، وأمفيوليس ، ودبليوم قد ثبت حيث أمروني بالثبات ، وواجهت الموت كما واجهه كل رجل آخر - وإذا كنت الآن ، وأنا أعتقد وأتصور أن الله يأمرني بأن أؤدي رسالة الفيلسوف فأفحص عن نفسى وعن غيرى من الناس ، إذا كنت أنا أتخلى عن مهمتى خشية الموت . . . ، وإذا ما قلم لى : يا سقراط إنا سنغفونك الآن ولا نشترط عليك إلا أن تكف من هذه الساعة عن البحث والتفكير على هذا النحو . . . أجبتمكم : أي رجال أثينة ، إنى أجلكم وأحبكم ، ولكنى سأطيع الله ولا أطيعكم ، ولن أمتنع ، ما دمت حياً وما دامت لدى قوة ، عن ممارسة الفلسفة أو تعليمها للناس ، أعظ كل من ألقاه على طريقي الخاصة ، وأقنعه ، وأقول له : أي صديق ، لم تعنى كل هذه العناية كلها بادخار أكبر قدر مستطاع من المال والشرف والسمعة الطيبة ولا تدخر إلا النزر اليسير من الحكمة والحقيقة وأنت مواطن في مدينة أثينة العظيمة ، القوية ، الحكيمة ؟ وأهيب بكم يا رجال

أثينة أن تفعلوا ما يأمركم به أنيتوس ، يرثوني أو لا يرثوني ، ولكن
أيا كان ما تفعلونه بي ، فلتعلموا أني لن أبدل طرائقي ، ولو مت
مرات كثيرة^(٤٠) .

ويبدو أن القضاة قد قاطعوه عند هذه النقطة ، وأمروه ألا يترسل فيما
بدا لهم أنه وقاحة ، ولكنه واصل دفاعه بكبرياء أشد من ذي قبل :

أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلي ، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما
تسيئون إليّ ... لأنكم إن قتلتموني لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر
مثلي ، فأنا ، إذا سمح لي أن ألتجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف ،
كذبابة بعثها الله إلى الدولة ، والدولة شبيهة بجواد عظيم كريم ، بطيء الحركة
لضخامة جسمه ، في حاجة إلى ما يث فيه الحياة ... وإذ كنتم لن تجدوا
غيري رجلا مثلي ، فإني أنصحكم أن تبقوا عليّ^(٤١) .

وصدر الحكم بإدانته بأغلبية ضئيلة لا تزيد على ستين صوتا ، ولو أن دفاعه
كان أقل حدة وأكثر استرضاء للقضاة لكان من الجائز أن يبرأ . وكان من
حقه أن يقترح عقابا آخر بدل الإعدام ، ولكنه أبى في أول الأمر أن يطلب
هذا الطلب ؛ فلما ألح عليه أفلاطون وغيره من الأصدقاء ، عرض أن
يؤدى غرامة قدرها مائة مينا (٣٠٠٠ ريال أمريكي) . وضمنه أفلاطون
وهؤلاء الأصدقاء في تعهده . فلما أخذ الرأي للمرة الثانية زاد عدد أصوات
الذين حكموا بإعدامه ثمانين صوتا على عددهم في المرة الأولى^(٤٢) .

وقد كان في استطاعته بعدئذ أن يفر من السجن ، وقد مهد له أقريطون
وغيره من الأصدقاء (إذا جاز لنا أن نصدق أفلاطون) بالرشا سبيل
الفرار^(٤٥) ، والراجع أن أنيتوس كان يأمل أن ينتهي الأمر على هذا النحو .
ولكن سقراط بقي كما هو إلى آخر يوم من حياته : فقد كان يحس أنه لن تطول
حياته أكثر من بضع سنين وأنه لن يلتقي عن كاهله إلا أبهظ جزء من الحياة ؛
وهو الجزء الذي يشعر فيه الناس كلهم أن قواهم العقلية آخذة في النقصان^(٤٦) .

لهذا لم يقبل اقتراح أقريطون ، بل أخذ يبحثه من وجهة النظر الأخلاقية ،
ويناقشه على الطريقة الجدلية ، ويطبق عليه المنطق إلى النهاية^(٤٧) . ولم ينقطع
تلاميذه عن زيارته في سجنه كل يوم خلال الشهر الذى انقضى بين إدانته
وتنفيذ الحكم فيه ، ويبدو أنه ظل يتحدث إليهم وهو هادئ حتى الساعة
الأخيرة من حياته . ويحدثنا أفلاطون أنه أخذ يعث بشعر فيليون Phaedo
ويقول : « نخيّل إلى يافيدون أن هذه الغدائر الجميلة ستقص غدا » - حزنا
على . وجاءته زائشي باكية وبين ذراعيها أصغر أطفالها ، فأخذ يواسيها ،
وطلب إلى أقريطون أن يصحبها إلى دارها . وقال له أحد تلاميذه
المتحمسين : « إنك لا تستحق هذه الميتة » فأجابه سقراط بقوله : « هل
تريد إذن أن أستحقها^(٤٨) ؟ » .

ويقول ديودور الصقلي^(٥٠) . إن الأثينيين ندموا على فعلتهم بعد موته
وأعدموا من اهتموه . ويقول سويداس إن ملائوس مات رجما بالحجارة^(٥١) ،
ولكن فلوطرخس يروى رواية أخرى فيقول إن الشعب غضب على متهميه
غضباً بلغ من شدته أنهم لم يجدوا مواطناً يوقد لهم النار ، أو يجيب لهم عن
سؤال ، أو يستحم في ماء استحموا هم فيه ، فلم يسعهم آخر الأمر إلا أن
يقتلوا أنفسهم^(٥٢) . ويروى ديوجانس ليرتيوس أن ملائوس أعدم ، وأن
أنتيوس نبي ، وأن تمثالاً من البرنز أقيم في أثينة تخليداً للذكرى الفيلسوف^(٥٣) .
ولكننا لا نعرف ما في هذه القصص من الصدق أو الكذب (*) .

وانتهى العصر الذهبى بموت سقراط . فقد خارت قوى أثينة المادية
والمعنوية ؛ ولم يكن ثمة ما يستطيع به تحليل القسوة المتناهية التى عاملت بها
ميلوس ، والحكم الوحشى الذى أصدرته على متلىنى ، وإعدام قواد أرجنوسى ،

(*) أما جروت^(٥٤) . فوشك فيها ، وما يبحث في نفوسنا نحن الشك في صدقها ما يبدله
أفلاطون وأكسانوفون من الجهد في الدفاع عن سمعة سقراط . ولكن هذه الروايات كان يقبلها
الناس بوجه عام في الزمن القديم (كان يقبلها مثلاً ترتليان وأوشطين^(٥٥)) ، وهى تنطق كل
الاتفاق مع عادات الأثينيين .

والتضحية بسقراط على مذبح الدين المختصر ، لم يكن ثمة ما يستطاع به تعليل هذا كله إلا ما أصاب الأخلاق فيها من تدهور بسبب الحروب الطوال التي خاضت عمارها وما جرته على أهلها من عذاب وآلام . لقد تصدعت جميع الدعائم التي تستند إليها الحياة الأثينية : فأفقرت تربة أتكا من جراء الغارات الاسبارطية ، وأحرقت أشجار الزيتون البطيئة النمو ، ودمر الأسطول الأثيني فلم تستطع أثينة بعد تدميره أن تسيطر على الطرق التجارية وتضمن ما يلزمها من الطعام ؛ وأفقرت نخزائنها من المال ، وفرض على الثروات الخاصة من الضرائب الباهظة ما كاد يذهب بها كلها ؛ وقتل نحو ثلثي مواطنيها . وكان ما أصاب بلاد اليونان من الضرر بسبب غزوة الفرس أقل مما أصابها بسبب حروب الپلپونيز . لقد تركت موقعتا سلاميس وپلاتيا بلاد اليونان فقيرة ولكنها مرفوعة الرأس تملأ نفوس أهلها العزة وتعمر قلوبهم الشجاعة ، أما الآن فقد افقرت بلاد اليونان مرة أخرى ، وأئخت أثينة بجراح في روحها مستنصرة لا يرجى لها برء :

ولم يكن يحفظ عليها حياتها إلا شيثان : عودة الديمقراطية على أيدي رجال من ذوى الحكمة والاعتدال ، وشعورها بأنها في خلال الستين سنة الأخيرة ، وحتى في خلال الحرب نفسها ، قد أخرجت إلى العالم فناً وأدباً لا يبدانهما إنتاج أى عصر آخر في تاريخ البشر . نعم إن أنكساغورس قد نبى ، وأن سقراط قد أعدم ، ولكن القوة التي بعثها في الفلسفة كانت تكفي لأن تجعل أثينة من ذلك الحين ، وعلى الرغم منها ، مركز التفكير اليوناني الذي بلغ فيها ذروته . فقد نهضت فيها تلك الآراء التي كانت من قبل أفكاراً تجريبية لم تتشكل بعد وأضحت نظماً عظيمة مستقرة ظلت مصدر الحركة في الحياة الفكرية الأوروبية عدة قرون ؛ وحلت محل نظم التربية العالية المضطربة التي لا تخضع لقاعدة والتي كان يتولى أمرها السوفسطائيون ، حلت محلها أولى الجامعات التي عرفها التاريخ - وهي الجامعات التي جعلت أثينة في (٢١٦ - ج ٢ - ٢١٤)

مستقبل الأيام « مدرسة هلاس » كما تعجل وسماها سيديدز قبل اكتمالها .
ولم تقض الحروب وما أزيق فيها من دماء وما أحدثته من فوضى واضطراب
على مقومات الفن وتقاليد قضاة تاماً ، بل ظل المثالون والمهندسون اليونان
عدة قرون بعد ذلك الوقت ينحتون ويشيدون لجميع بلاد البحر الأبيض
المتوسط . ولقد انتعشت أثينة من اليأس الذي دب فيها بعد هزيمتها ، وعادت .
إليها حيويتها عوداً يثير الدهشة ، فتجددت ثروتها ، وثقافتها ، وقوتها ،
وازدهر خريف حياتها وأثمر أحسن الثمار .
